رسالة عاجلة إلى هوليوود!

بسْــــــــم الله الرَّحمـــــــن الرّحـــــــــيم

"ها كسي هندو كيوربي

حرمتي قرآنكي

إيخدا إي منتقم فر

يا دكاهو تارها"...

إن لم تشاهد فلم "إمام بحـــــــــق "لمؤسسة السحاب من قبل فلن تفهم شيئاً من هذا الموضوع ، تمامـــــــاً كما استعجمت عليك تلك الكلمات في أوّلـــــــــه ،

سيكون الأمر عليك وكأنك بين شخصين يتحدثان عن رحلة ممتعة إلى مكان رائع لم تره من قبل ، يتكلمون في تفاصيله وتضاريسه ومعالمه ، وأنت بينهما لا تدري عما يتحدثان ،

ربما تتشوق لزيارة ذلك المكان ، وبعد هذا الموضوع ربما تتشوق لمشاهدة ذلك الفلم ،

إنني اليوم أتحدث إلى كل من شاهد تلك الملحمة الجهادية الخالدة،

وددت أن أحمل نسخة من هذا الفلم ، وأحجز أوّل تذكرة إلى فرنسا حيث مهرجان كـــــان ، أو إلى كاليفورنيا لأعرض الفلم على مانحي جوائز أوسكار ،

ربما لن يطيقوا رؤية رجل يلبس السروال الأفغاني و يحمل فلماً بلا حقوق محفوظة ، ولا يحوي على هزة وتر أو ضربة دف ، ثم يدعي أنه مرشح لجميع الجوائز (أجمل حبكة ، أجمل إخراج ، أجمل تصوير فني ، أفضل بطل ،

أفضل دور ثانوي(...

من الناحية المادية ؛ لم يكلف الفلم منتجيه أكثر من عشرات أو مئات الدولارات ، أما من الناحية المعنوية ، فلقد كلفهم الكثير الكثير من الدمـــــــــاء ،

وكما تحدى موسى عليهم السلام السحرة الكفرة يوم الزينة ، أودّ تحـــــدي كل أرباب الفن السينمائي في هوليوود ، بـــ "إمـــــــام بحق" ،

فهذا الانتاج الفني لم يصنعه أراذل الخلق كما هم فنّانوهم ، بل صنعه مهندسي مجد أمة الإسلام العزيزة ،

هو نداء أوجهه إلى القائمين على مهرجانات الفن المزعوم !

أتحداكم أن تدعوني إلى هناك – بعد أن تمنحوني الأمـــــــان – ، وأن تسموحي لي أن أعرض عليكم فلم "إمـــــام بحق "،

ولا بأس أن ترعى منظمة الصليب الأحمر هذا التحدي كجهة محايدة ،

هذا الفلم هو أول فلم بدون ممثلين ، لأنه قصة حقيقية ، ومشاهده حقيقية ، وأشخاصه حقيقيون،

نعم ، له بداية ونهاية ، له حبكة درامية ، فيه مؤثرات صوتية ، فيه أبطال يصنعون الأحداث ، فيه شخصية طيبة منتصرة وأخرى سيئة منهزمة ، هو فلم كامل من جميع النواحي ،

لكنه من دون تمثيل ، فما شاهدناه كان قطعة من دهر ، كان شهادة على عصر ، كان ثواني ودقائق وساعات مرت علينا جميعا دون أن نكون هناك ،

أتذكرون فلم عمر المختـــــــــار!

هناك مشاهد معينة يختارها المخرج ليمرّر رســـــــالته إلى المشاهدين ،

ذلك الطفل الصغير الذي كان ينظر إلى عمر المختار قبل استشهاده ، نظر إليه الشيخ بحنان وحب وإرادة وكأنه يلقنه الوصية من خلال نظراته ، وعندما أعدم الشيخ صعد الطفل إلى المنصة ليلتقط النظارة ، فهي الدفتر الذي نقش على أثيره وصية البطل عمر المختار ، ومن خلالها عبرت نظرات الشيخ إلى الأجيال القادمة قبل استشهاده ،

هذه المشاهد يختارها المخرج بعناية ، ومن خلالها يثبت براعته وخبرته في انتاج اللقطات التي تسكن في الدماغ قسم "الذاكرة الأبدية " في الفص الجداري ،

لا يفهمها السطحيون ، أصحاب الفكر المجرد ، العاجزون عن قراءة ما وراء السطور ،
لكن النقاد المتمرسون يعلمون أن هذا هو الإبداع السينمائي ،

وتجده في "إمام بحق "في أعلى قممه...

بين الكلام عن الطواغيت والرّايات والجهاد وإهانة القرآن ، ينقلك المخرج إلى مشهد مختلف قد لا يبدو –من أول وهلة – على صلة بالذي قبله ،
فبينما كان الشيخ عبد الرشيد محاصراً في مسجده مع طلابه تحت إطلاق النَّــــــار ، وإذ به يخرج عن النص ويقول:
"وهناك أحد الصحفيين وعدني بأن لا يشرب الخمر مستقبلاً ،
فطلبي منه وهو يعلم عمن أتحدث ، طلبي منه أن يلبي طلبي الأخير ، ولا يشرب الخمر مرة أخرى "
ما علاقة شرب صحفي مغمور للخمر من عدمه في تلك اللحظات العصيبة ؟
هنا يكمن الإبداع في اختيار هذا المشهد الحقيقي ووضعه في سياق هذا الانتاج الفني الأسطوي ،

فلقد استطاع أن يوضح أسمى حقيقة من حقائق الصراع بين الحق والباطل ،

فالرجل لا يأبه بمصيره بقدر ما يأبه بتوبة رجل مسلم التقـــــاه ، فطمع في هدايته ونجاته من النار أيما طمع ، وأحب أن يلقى ربه بأجرها...

بل إن الشيخ قد أسر له بالدعوة ، فلقد قال **"هو يعلم عمن أتحدث ! "** أي أن لا غيره يعلم بمسألة المناصحة هذه ،

ثم إنه يقول لذلك الصحفي : **طلبي الأخير منه!**

فهو يعلم أنه مقبل على الموت ،

وأنه لن يلتقيه مرة أخرة على وجه هذه الأرض ،

فأراد أن ينتهز هذه المناسبة وان يجعلها باعثاً قويا لذلك الصحفي ليتوب وينجو من النار بإذن الله ،

فهو)طلبه الأخير) ، ولو طلب منك شخص مقبل على الموت (طلبه الأخير) فإنك ستجتهد في تحقيقه وإن لم تكن تعرفه إكراما لتخصيصه هذه الثواني الثمينة من أجل ذلك ، وهذا ما فعله الشيخ عبدالرشيد في خضم هذه الملحمة ،

هذا المشهد أبكاني حتى تقرحت أجفاني!

هذا المشهد بين للجميع أن هذا الصراع ليس صراعاً على السلطة أو أي شكل من أشكال متاع الدنيا ، ليس تطرفاً ، ليس إرهاباً كما يزعمون ، بل هو دعوة الأنبياء والصالحين الذين جاءوا ليخرجوا أقوامهم من الظلمات إلى النور ، من غضب الله إلى مرضاته ، من ناره إلى جنته...

هؤلاء يا من استبحتم دماءهم ليسوا وحوشاً يتعطشون للدماء ، هم أصحاب رسالة سماوية ويريدون أن يعيشوا في ظلال مبادئها الحنيفة ،

فكما كان تحكيم الشريعة هو آخر مطلب للشيخ من الحكومة الباكستانية ، كان ترك شرب الخمر هو مطلبه

الأخير من ذلك الصحفي ،

انسجام صادق كامل مع ما يدعو إليه من مبادئ ،

لم تشاغله حساسية الموقف عن واجبه الدعوي اتجاه ذلك الصحفي ، لأنه اختار معاناته بإرادته من أجل خدمة رسالته ،

الذي التقط هذا المشهد ووضعه وسط هذه المشاهد الدموية ، هو رجل يفكر بطريقة الشيخ عبدالرشيد غازي ، هو رجل بكى عندما شاهد هذا المقطع وقرر أن يُبكي كل من سيشاهده من بعده ،

مشهد آخر في هذا العمل الفني الخارق للعـــــــــادة ،

مشهد يجعل عينيك تغرق في بحر الحزن كأنها شمس الغروب الحمراء ،

يطير بك إلى رحاب المسجد الأحمر ، وياله من اسم ، كأنه نزل عليه من السماء ، المسجد الأحمر...

وكأن من سماه كان ينتظر ذلك اليوم الأحمر ، المخضب بدماء النســــــاء الموحدات ، ليقنع العالم بأنه من أحق المساجد باسمه ،

إحدى طالبات جامعة حفصة ، تتحدث عن المأساة:

"كنا نسمع نسمع من قبل أن أخواتنا في كشمير يجملن أيديهم بحناء الدماء ،

ولكنا رأينا ذلك عمليا في المسجد الأحمر ،

فلما خرجت كانت ثيابي مبللة بالدماء...

وكانت يدي بسبب رفع جثث إخواني وأخواتي ..كانتا حمراوتين من الدماء"

هنا ستستحي من لحيتك وشواربك ، هنا ستتبخر كل أعذارك ،

هنا سيتورم ضميرك ألماً وحسرة ، هنا ستحتقر كل أعمالك الخيرة التي صرفتها في جنب ما فعله أخواتنا الأعجميات ،

انظر حولك ،

فإن لم تجد بجوارك كلاشن وفي جيبك رصاصات ، إن لم تجد حولك جبال الهندكوش ، إن لم تشاهد أمامك أسوار العدو ، إن لم تجد خلفك أضواء قرية حدودية ،

إن لم تجد حولك أياً من هذا فاعلم أنك مسدس صوت ، أو حمل كاذب ، أو سراب يحسبه الظمآن ماء ،

واعلم أن كل الدموع التي ستصرفها ليست إلا دليل إدانتك ، وأنك تفضل البكاء على الموت ، والإحباط على العمل ،

وأنك رجل "نســــبِـــــيّا " ، وستكون لا محالة في مرتبة إمرأة بالمقارنة مع رجولة طالبات الشيخ غازي ،

كم تحسرت أنني لم أكن هناك لحظة المذبحة ، ليكون صدري ترسا يقي المسلمات رصاصة خرجت من بندقية مرتد مجرم ،

لو دفعت حياتي ثمنا لتأخير مقتل إحدى أخواتي هناك لمدة ثانية واحدة فقط ، لو كان جسدي سيفعل ذلك ، لتمنيت أنه تمزق دون أخواتي ،

ليتني كنت هناك ، جريحا يسيل الدم على يدي ووجهي حتى أجد طعمه في فمي ، أموت نزفاً تحت راية عبد الرشيد غازي ،

ليتني كنت في ذلك المسجد ، أجلس في عتمته التي لا يضيئها إلا وهج القنابل ، مستعصما بركني لا أتركه إلا صريعاً ...

عظيم أنت يا شيخ عبدالرشيد غازي ، عظيم هو منهجك ، عظيم هو أسلوبك في تربية الأجيال ،

ما كنا نعلم أنك تربي النســــــــاء ليصبح أجبنهن كأشجع ذكر بيننا ،

هاتوا لي أحد مشايخ الفضائيات حولنا ، وليعتصم في مسجده من أجل الشريعة ، ثم لينظر كم رجل وإمرأة

سيقف معه في اعتصامه ،

ستكون النتيجة مخجلة جداً ، وربما ألقى عليه القبض من هم في أول سطر في جماعته ،
هذا لأن تربية هؤلاء الأدعـــــيــــاء فاشلة ، فاسدة ، عقيمة ، فهم يعطون درساً عن الجهاد في سبيل الله ثم يعودون إلى بيوتهم ليلاعبوا الأطفال ويعافسوا النساء وكأن شيئا لم يحصل ،
يتكلمون عن التضحيات وهم يقودون أفره السيارات ، ويسكنون أجمل البيوت ،
يبكون في صلاة قيام الليل ، ثم يضحكون تملقاً في حضرة الحاكم الطاغوت ، فكان من حولهم من هم على شاكلتهم ، فشجرة الغرقد لا تثمر العنب ، والطيور على أشكالها تقع ، وإذا كان رب البيت للطبل ضارب فشيمة أهل البيت كلهم الرقص ...

...وقبل أن تستيقظ من هول هذا المشهد حتى يأتيك آخر ، ليرفع آخر طبقة من الغشـــــاوة التي تغلف قلوبنا الصدئة ،

شقيقة إحدى الطالبات تنقل لنا مشهداً مما حدث هناك ، فتقول:

"لي أخت صغرى بداخل المدرسة ، وعندما بدأت العملية ذهبنا كي نأخذها معنا ...وضغطنا عليها كثيرا خصوصا والدنا ، ولكن عندما أخبرتنا بكل شيئ ، أصبحنا نشعر بالخجل ونخزتنا ضمائرنا حقا ، قالت : (إن الإسلام ليس ملكا لأم الحسن أو مولانا عبدالعزيز ، بل هو ملك الجميع ، وفي هذا الوقت علينا أن نقوم جميعا ونقف بجنب الذين يقدمون التضحيات)

فعندما ذهبنا لنأخذ أختنا قررت من تلقاء نفسها عدم الذهاب معنا ، وجاءت أم الحسن وأمامنا طلبت من أختنا الخروج ، ولكنها قالت : (لا يمكن أن أغادر المدرسة ، فالمهمة التي بدأناها قد بدأناها لوجه الله ، وإن شاء الله ، سنستمر حتى نجاحها ولو ضحينا بأرواحنا من أجلها"..)

ما بال الحروف تذوب في أناملي وكأنها شموع ، ما بال الحزن قد تجمد في ملامحي حتى وكأني لوحة زيتية باكية ، يا لها من لقطة أشاهدها وكأنها أول مرة ..عندما أشاهدها كل مرة ،

--هنا بالضبط ، اسمحوا لي أن أرحل عن موضوعي...

عذراً يا أحبتي ، فأنا الآن سأتكلم عن نفسي وحدها عندما شاهدتُ تلك اللقطة بالذات ، سأشرح معاناة رجل كان يجلس في غرفة مظلمة .. أمام حاسوب عتيق ، وكأن على رأسه الطير ،

عذراً فما أصابني من كرب أكبر من يشاركني به أحد غيري ، فأخوكم قد أصيب في مقتل ، حتى كأن طيور الحزن قد حطت على أغصان رئتيه ،

تخيل لو أن لديك ضرسا يؤلمك ، فماذا سيهمك لو شعر بك الآخرون أو لم يشعروا ؟

قد يتعاطف معك من حولك ويقترحوا عليك اقتراحات معينة لتخفف معاناتك ، ولكنها تبقى معاناتك وحدها ،

قد يتحدثوا عن تجاربهم الخاصة بخصوص هذا الألم ، وكيف عانوا وصبروا حتى أصبحت هذه المعاناة جزء من الماضي ورصيد تجربة يعتزون به ، ولكن الأسى أوالمعاناة تأبى أن تصير من ماضيك قبل أن تسرق منك حاضرك ،

إن ألمي ومصابي بعد هذا المشهد من "إمــــام بحق" أصبح مسألة شخصية ،

كوجع البطن ،

كصداع الشقيقة ،

كالعطش ، كالجوع ...كالموت ،

كرعشة سعيد بن عامر الجمحي ،

ولذا فاسمحوا لي أن أخرج عن النص اضطراريا ، فأنا لا أريد أن أكتب لكم ، بل لي ،

ستجدون ما أكتبه من الآن ونازلاً من دون ألوان ، من دون تنسيق ...حتى الخط فلن أكتب إلا بالخط الإفتراضي للمنتدى ،

فلقد كنت أفعل ذلك من أجلكم ، والآن أنا أزهد في كل ذلك ...لأني أعلم أي سطوري الحمراء وأيها السوداء ، أعلم أي حروفي الكبيرة وأيها الصغير ، أي كلماتي الفاتحة وأيها الغامق ،

كلما اشتقت البكاء ، أذهب لمشاهدة إمام بحق ،
كلما قررت أن أزدري نفسي ، كلما أردت أن أبكي على ذنبي ، أشاهد إمام بحق ،
عندما ينتهي أي فلم غربي ، تجدهم يضعون أسماء الممثلين حسب أهمية الدور أو الترتيب الهجائي للأسماء ،
في نهاية إمام بحق ، لا يعرضون لك تلك القائمة ،
فهذا الانتاج الفني ليس من انتاج مؤسسة السحاب وحسب، وإنما "السحاب " هي الإمضاء الأخير في أسفل صفحة ملئت سطورها بأسمى معاني التفاني في الأداء ،
إنه ثمرة مسيرة تربية عقدية امتدت منذ عهد الدعاة الأوائل ،
هو قصة عقيدة كان روّادها دوما أئمة بحق ،
إنه اختزال لحقيقة المعركة بين الحق والباطل في مشاهد مصورة ،

لا أكاد أصدق أن هذه الثلة المؤمنة قد رحلت عن الدنيا بينما بقيت أنا ،
مصيبة ، فاجعة ، كارثة..
كنت كطفل صغير يتيم لم يدرك بعد فداحة مصابه بأبويه ، ولما بلغ عقده الثاني أصبح ينظر إلى صورهما ويبكي ...ويبكي ،

وها أنا أبكي مجدداً ،

كلما شاهدت هذه المشاهد ، وخاصة مشهد الأخت المرابطة على ثغرها حتى الموت ،

شعرت باليتم واللوعة والغربة ،

كلما أصابتني مصيبة نظرت إلى " إمام بحق " فأنسى همي وأبكي على أخواتي الشهيدات في سبيل الله ،

أشعر أن خذلاني لهن كان أشد عليهن من وقع قنابل العدو ،

ابحثوا عن بصماتي على زناد السلاح الذي قتل به أخواتي ، وستعرفوا أني شريك في الجريمة ،

وماذا ينفعهن أنني أكره ما حصل لهن ؟

فأنا بخذلاني ، بتقاعسي ، بقعودي ، بتثاقلي كنت شريكا في الجرم ،

كنت الطابور الخامس للمهاجمين القتلة،

أنا وأمثالي من جرأ المجرمين ليفعلوا ما فعلوا ، وأكثر ما يثق به هؤلاء الكفرة هو ذاكرتنا المهترئة وعزيمتنا المتآكلة ،

أنا وأمثالي ذخر للعدو ، وبدموعنا يغسل هؤلاء الانجاس آثار الجريمة ،

لقد قتلت أخواتنا يا "رجال" وأصبح في حديقة كل مترل لهن قبر ،

يا لها من حفلة تخرج جماعي نظمتها جامعة حفصة ، وعقدت في باحة المسجد الأحمر ،

لقد كن يتبادلن التهاني بالنجاح على طريقة أصحاب الأخدود ،

لقد احتفلوا بنجاح الطلاب ونجاح المعلمين في نفس الوقت ،
كل خريج وخريجة كان ينال "الشهادة" العليا ، ومن ثم يوضع في صندوق ليدفن ،

فلقد أكلموا تعليمهم من أجل مستقبلهم الأبدي ، ولكي يحققوا النجاح في الحياة ما بعد الموت ،

ضيوف أخفاء ، أتوا إلى الدنيا كعابر سبيل لا يريد منها شيئا ، ورحلوا منها دون أن يأخذوا منها شيئا ،

ولكنهم برحيلهم منحونا درسا في الحياة ،

ولعلي في يوم الأيام ، إن كتب الله لي لقاء العدو ، وفي لحظة حيرة بين الحياة أو الموت في سبيل الله ،

لعلي أتذكر أم الحسن وعبد العزيز وعبد الرشيد غازي ،

لعلي أغمض عيني لأتذكر منظر جثث أخواتي المبعثرة في باحة المسجد الأحمر ،

لعلي أتذكر كلمة الأخت:

"لا يمكن أن أغادر المدرسة ، فالمهمة التي بدأناها قد بدأناها لوجه الله ، وإن شاء الله ، سنستمر حتى نجاحها ولو ضحينا بأرواحنا من أجلها"

لعلي أتذكر كل هذا أو أياً من هذا ، وادع التردد وأقرر الموت في سبيل الله ، مقبلا غير مدبرً ، مختاراً غير مكرهٍ ،

عندها فقط سيندمل جرحي ، وتسكن روحي ، ويجف دمعي ، ويهدؤ روعي ، وإلا فستسمر معاناتي كلما جلست أمام شاشة يعرض عليها إمام بحق!

المعذب بذنوبه ،

الخراساني أبو دجانة ،